من تاريخ الموسيقى العربية

ترجمة وتلخيص: شاهر عبيد(*)

الموسيقى ما قبل التاريخ

بين نهري دجلة والفرات قامت أقدم الحضارات الإنسانية. وقبل ستة آلاف سنة كان أهل تلك الحضارات يعبدون آلهتهم بالكلمة واللحن. وقد تقربوا إلى إله الرعد «رامان» بصوت القصبة الذي يشبه زفيره.

ولعبت الموسيقى البسيطة دوراً هاماً في الطقوس الدينية هناك. وعلى سبيل المثال، كان الانشاد الديني في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد يتضمن فكرة الترجيع والجواب لدى السومريين. كما أن الموسيقى تقدمت تقدماً كبيراً عند البابليين. وما لبثت الموسيقى أن اتخذت اتجاهاً مدنياً في أشور (1270-606 ق.م.). وصارت أكثر ظهوراً في الاحتفالات وفي القصور والبيوت. وقد تصورت تلك الشعوب الأولى أن هناك تناغماً بين الكون والإنسان، وأن ذلك ينعكس في الموسيقى.

وعندما أصبحت بلاد بابل جزءاً من الامبراطورية الفارسية عام 538 ق.م.، بات الطابع الحسي في الموسيقى أقوى من ذي قبل. وزاد من ذلك اعتماد الفرس على أداء المغنيات ورقصاتهن في القصور ومنازل الطرب. وبدا كما لو أن التقليد الموسيقي العربي القديم قد ضاع في موطن نشأته الأولى.

وقد عرف التراث العربي عدداً كبيراً من آلات الطرب، كالدف والطبل والقصبة (المزمار) والعود، كجزء من تراث ثقافي امتد آلاف السنين. ومنذ القديم، اعتاد العرب في الجزيرة العربية، في الحجاز واليمن بصفة خاصة، على الحداء، وهم يقودون قوافلهم عبر الصحراء. وكانوا بذلك يتغلبون على وحشة الصحراء وضجر الارتحال الطويل. ويقال إن أوزان الحداء العربي جُعلت متفقة وحركة أقدام الجمل. وقد كانت الجزيرة العربية على اتصال وثيق بالشعوب والأقوام المجاورة: في بلاد الرافدين، وجماعات اليهود، والإغريق. وساعد الأثر العربي في صياغة ثقافات أمم المنطقة بكاملها، كما أنه تأثر بها بدوره، وبخاصة حضارة ما بين النهرين. ونلاحظ

(*) مترجم وكاتب من سوريا.

هذه التأثيرات في تسميات الآلات التي لها نظائر في اللغات الأخرى. هكذا، فالطبل العربي هو «طِبيلا» Tibela في العبرية، و«طبلة» بالسريانية Tabla، و«طبّولو» Tabbulu عند البابليين والأشوريين (ويقابلها بالهندية «طبلة»، وبالتركية «داوول» dawul، وبالفارسية «دوهول» duhul).

إن أول إشارة واضحة إلى الموسيقى العربية تعود إلى القرن السابع ق. م. وهي موجودة على نقش آشوري، حيث كان السجناء من العرب يغنون، ترويحاً عن أنفسهم وهم يؤدون الأعمال الشاقة، ويؤلفون الموسيقى التي لفتت نظر أسيادهم وشنفت آذانهم، فجعلوا يطلبون المزيد من تلك الألحان.

ومن المحتمل أن تكون الموسيقى العربية في الألف الأولى قد لعبت دوراً يشبه إلى حد ما دورها في الحضارات السامية الأولى في بلاد ما بين النهرين. وكان للطوائف بلا شك موسيقاها ورقصاتها المقدمة إلى الإله Dhu'L-Shara، من الآلهة النبطية العربية. فقد عبدوا ذلك الإله بتقديم الترنيمات المختلفة. وقد تناهت إلينا هذه المعلومات فيما بعد من كتابات متفاوتة كان أصحابها يرمون إلى إدانة الممارسات «الوثنية» القديمة، مما يعني أنها استمرت حتى العصور التالية. وكان المغني الجوال باستطاعته استحضار الجن عن طريق الموسيقى. ولا يزال التراث العربي يشير إلى الجن كملهم للأشعار والألحان معاً. وفي مقطوعات الشعر الغنائي المذكور كثير من مصادر الموسيقى والألحان.

موسيقى ما قبل الإسلام (1 - 7 م)

كان لتدمير مدن ما بين النهرين قبل الميلاد أثر كبير على الممالك العربية. فإلى جنوب الجزيرة العربية، كانت الممالك ترعى الموسيقى والشعر. والعرب لا ينظرون إلى الحجاز (إلى الشمال قليلاً) كمصدر للموسيقى العربية الحقة، بل إلى اليمن. غير أن تلك الممالك لم تنهض مجدداً، وحدثت هجرة واسعة النطاق. وكان ذلك اعتباراً من القرن الثاني. واتجهت القبائل المهاجرة شمالاً إلى إقامة مراكز ثلاثة رئيسة، هي سورية، وبلاد النهرين، والعربية ذاتها. وحضت تلك الهجرات على رعاية الموسيقى.

وكانت سورية يومئذ لا تزال تحافظ على الكثير من وجوه الثقافة السامية الأولى، حيث امتزجت بها الحضارة النبطية، وبخاصة في المركز الموسيقي الهام ـ المركز الغساني. ومن هناك ربما أخذ العرب آلة المزمار (الزنبق).

أما منطقة ما بين النهرين فهي مركز هام للثقافة السامية منذ القديم. ووقعت في القرن السادس قبل الميلاد تحت ظل الحضارة الفارسية. واتفق أن كان الملوك الساسانيون (224-642 م) مولعين بالموسيقى. وجعل اللخميون العرب عاصمتهم في بابل، مدينة الحيرة، التي غدت أهم مركز إشعاع حضاري عربي في العصور القديمة. ومن هذا المركز انبثقت أهم ملامح الموسيقى العربية والفارسية. وجاءت من هناك القيثارة إلى الجزيرة العربية، وكذلك الطنبور (بالفارسية طَنبور) والشوم Shawm. وبرز من بين المؤلفين آنذاك بارباد الفارسي الذي ظلت ألحانه تغنى في «ميرف» حتى القرن العاشر. وتذكر المصادر سبعة ألحان قبل عصره، فأصبحت اثني عشر لحناً. بالإضافة إلى ألحانه التي بلغت ثلاثمائة وستين لحناً.

وفي غرب الجزيرة العربية تركز النشاط الموسيقي في الحجاز ـ عكاظ ومكة. ففي عكاظ كان يلتقي الشعراء والموسيقيون في حلقات تنافسية. وكانوا إذن يتلون أشعارهم، ويغنون قصائدهم. وأصبحت مكة مركز العبادات العربية ومدينة الحج. فكانت تنبعث من أغاني الحجيج الروعة والسحر البدائي على غرار ما يمكن سماعه في التهليل والتلبية. ويضاف هذا إلى السحر القديم الذي تردد عن الترنيمات التي غناها الوثنيون في حلقات حول الأصنام، مشفوعة بالأضاحي.

مع ذلك فإنه لا يعرف غير القليل عن موسيقى تلك الأيام، وكانت القينات فيها ذات دور هام. والقينات وجدن حيث وجد مجتمع العرب الأول: في الجزيرة العربية وسوريا، وما بين النهرين، وفارس. وربما كانت هناك إغريقيات أو فارسيات أيضاً من بينهن، في بلاط الملوك والمنازل والخانات والمعسكرات.

وقد بقيت الأغنية جزءاً من حياة العرب على مر الأيام. وتحتوي كل أغنية على اللازمة (الترجيع) والجواب. وساعدت اللغة العربية على تكييف اللحن عن طريق استخدام حروف العلة - امتداداً أو ارتفاعاً وتشديداً. وكانوا يعلمون التفعيلات بآلات النقر كالطبل والدف.

وقد احتل الرقص جانباً هاماً من نظام الطرب والتسلية عند العرب. وكان من عادة الراقصين وضع الجلاجل الصغيرة لدعم موسيقى آلتهم الموسيقية. وكثيراً ما شاركت النساء بآلات النقر في الأسرة أو القبيلة. وهذا كان إذن تراث الموسيقى قبل ظهور الإسلام: موسيقى للعبادة، إلى حد ما غير معروفة جيداً، وموسيقى دنيوية ذات سمة حسية مميزة، ثم موسيقى فولكلورية متوارثة.

الإسلام والموسيقى الكلاسيكية العربية

كانت مكة، حيث ولد الرسول الكريم (571-632 م) هي مركز العبادات لدى العرب. وفي الحجاز ولد الدين الجديد (622 م) وازدهر. وهناك ما يشير إلى أن الاتجاه الإسلامي في الموسيقى كان نابعاً من اعتبارات دينية أخلاقية، وليس اعتبارات موسيقية صرفة. وحيث لم يتمكن الإسلام من اجتثاث موسيقى المزر والأوثان، لأن الموسيقى تعيش في كيان العربي، فقد تبناها - وبخاصة التهليل والتلبية، وبعض أغاني الحجيج، لكنها أعطيت شكلاً جديداً، وسُمح لها أن تؤدى بمرافقة الناي والطبل.

الموسيقى الدينية

ليس للإسلام طقس ديني فعلي يؤدى في المسجد كما هو الحال في الكنائس المسيحية. مع ذلك كانت الموسيقى مستخدمة بطرق شتى. ففي مهد الإسلام كانت الدعوة إلى الصلاة (الآذان) تنطلق في الأسواق العامة ثم في المساجد. وفي بادىء الأمر كانت هي أشبه باللحن الجنائزي، لكنها صارت أكثر شجواً مع مرور الوقت، إلى أن أصبحت تُسمع اليوم بطرق شتى تتفاوت بين الإنشاد البسيط إلى المنمق. ولترتيل القرآن لونه الخاص، حيث إن لغته المقفاة تدعو إلى القراءة المرخمة ذات الجرس الموسيقي.

ومنذ البداية كان هناك من حمل على الموسيقى المدنية والدينية على السواء. ولا شك أن بعض الاجراءات العملية قد وضعت للتضييق على عمل المغنيات في ظل الخلفاء الراشدين (632-661 م)، حيث جعلوا المدينة المنورة مركز الخلافة. وهنا بالذات أصبح الرجال العنصر الأهم في الموسيقى، قبل النساء. وظهر التأثير الفارسي من خلال الأسرى الفرس المرسلين إلى الحجاز.

المدرسة الكلاسيكية العربية

بعد ذلك بقليل تلقف الخلفاء الأمويون التقليد الموسيقي الدنيوي وأخذوا يشجعونه، ذلك أن بني أمية (661-750 م) اهتموا بالوجه الامبراطوري للإسلام، وإذ نقل الأمويون مركزهم إلى دمشق، حافظوا على تطور المؤسسات الموسيقية القريبة من الكونسرفتوار. ولأول مرّة نسمع في عهد يزيد الأول (ت. 683 م) بمغني البلاط، «وهو كان مغرماً بالموسيقى».

في هذه المرحلة كانت السمة الغالبة في الموسيقى هي أغنية «السولو» Solo برفقة العود. وبالفعل كان الغناء يحافظ على تفوقه على موسيقى الآلات الصرفة حتى القرن العاشر. وكان العود العربي بطنه من

الجلد، لكنه وصل بعد العود الفارسي (Barbat) إلى مكة عام 685 م، واكتسب اسمه من مادته الخشبية بعد أن أصبح يصنع منها. وشكل الموسيقى في أغنية العود كان يتبع شكل القصيدة، ولحنها وحيد قصير، يتنوع تبعاً لمعطيات التنميق الممكنة.

ويعتبر ابن مسجاح (ت. 715 م) أعظم موسيقي في ذلك العصر، ويعدّ أب الموسيقى الكلاسيكية، وربما أول مرمّز للتأليف الموسيقي النظري. وقد سافر ابن مسجاح عبر سوريا وبلاد فارس، وأتقن الكثير من النظرية والغناء وعزف العود، والمرافقة الإيقاعية، التي وقع عليها. واستطاع أن يهضم كل ما عثر عليه، لكنه رفض الكثير مما اعتبره غير عربي في الموسيقى. لهذا فالموسيقى العربية كانت خلقاً ذاتياً، لكنها اغتنت بموسيقى الفرس وبيزنطة وغيرهما.

إن نظام ابن مسجاح قد تبنى «الأنماط الأصبعية» الثمانية للعود، وهو نظام ساد في الموسيقى العربية الكلاسيكية النظرية حتى القرن الحادي عشر. وباستثناءٍ واحد كانت تلك الأنماط تشبه النماذج الكنسية والإغريقية القديمة. وعلى أساسها وضعت الأنماط اللحنية والألحان المختلفة، المؤداة عن طريق الرعشات والإمهال والاهتزاز، وغير ذلك مما يكون أسلوب التلحين الزخرفي المعروف عند العرب بـ (الزوايد) وللغربيين باسم Fioritura. وهذا الأسلوب يشبه الزخرف السطحي في المعمار العربي.

وقد جرى ترميز الأنماط اللحنية (الإيقاعات) بصورة راسخة في ذلك العصر، فكان في البدء رباعياً (في الربع الثالث من القرن السابع)، فأصبح سداسياً (في عهد الأمويين)، فثمانياً (في القرن التاسع). ولكل واحد من هذه القياسات دوره الأساسي إضافة إلى الأنواع الجانبية.

واستمر الفن الموسيقي الكلاسيكي في ازدهار مطرد في بداية العصر العباسي (750-847 م) في بغداد، حيث وصل الذروة هناك. وتأوج الفن الموسيقي واكبه ازدهار الفن والرسائل والأدب في عصر هارون الرشيد، المشهور باهتماماته الموسيقية، من خلال كتاب «ألف ليلة وليلة». ونافس المدرسة الكلاسيكية العربية الفن الفارسي الرومانسي بقيادة المغني الشهير الأمير ابراهيم (ت. 839 م). بيد أن ظهور الموسيقي العربي اسحاق الموصللي (767-850 م) كان عاملاً هاماً في حياة الموسيقى العربية. وربما كان الموصللي أشهر موسيقى عرفه الإسلام. فهو مغنٍ رائع، ومؤلف نظري كبير ـ مع أننا نعرفه من خلال تلميذه ابن المنجم (ت. 912 م)، وهو واضع الأطروحة الكاملة الوحيدة عن التراث الموسيقي الكلاسيكي التي بقيت لنا، وهي **رسالة في الموسيقى**. وهذه الرسالة تظهر المعرفة الشمولية لدى الموسيقيين العرب الكلاسيكيين (التي عاشت حتى أواخر القرن الخامس عشر). وكانت تلك المعرفة الموسوعية في الرسالة تشبه الموسوعية الإغريقية الفيثاغورثية.

الهلينية وانحدار الفن

بعد عام 847 بدأت قوة الإسلام السياسي في التراجع. وبقيت بغداد مركزاً تجارياً عظيماً، وحافظ معظم الخلفاء فيها على المؤسسات الموسيقية المتطورة مرتبطة بقصورهم. إلا أن موسيقيي هذه المؤسسات كانوا غير من سبقهم، وانحدرت فنية الموسيقى. وفي الوقت ذاته ظلت عدة تيارات مناهضة هامة تعمل: فالموسيقى اتجهت إلى مواقع دينية متصوفة، والنهوض بالموسيقى الآلاتية ارتهن بدخول آلات موسيقية جديدة من الخارج، وظهرت أعمال نظرية هامة.

وفي صميم الدولة الإسلامية برزت عندئذ أخويات الصوفيّين والدراويش. وهؤلاء أعطوا الموسيقى دفعة حياتية جديدة. فالصوفيون كانوا منذ القرن الحادي عشر يعتقدون أن الحقيقة المطلقة يمكن فهمها فحسب من النشوة الإلهية ـ من خلال «رفع

الغشاوة ومشاهدة الله». وأقرب طريق إلى ذلك هو سماع الموسيقى.

الموسيقى الآلاتية

إذن كانت للموسيقى الغنائية، كما شاهدنا، السلطة الأعلى Paramount. إلا أنه منذ بدايات القرن العاشر شرعت الأذواق الفارسية والمغولية والتركمانية والتركية تغلّب الموسيقى الآلاتية. وكان أهم شكل لها يومئذ هو ما دعي «النوبة»، وهو لحن صوتي مركب، يتألف من عدة أقسام كل واحد منها مسبوق بمقدمة (بَشرف) آلاتية، وهي تتيح لعازفي الآلات فرصة للعزف بالتتابع. ولا نعرف ماهية ألحان تلك الحقبة. أما فيما بعد فقد كان اللحن ذا مقدمة آلية مرتجلة أطلقوا عليها اسم التقسيم.

ولقد حافظ العود على شهرته، على الرغم من بروز آلات أخرى. وكان من بينها القانون بشكله شبه المنحرف، وهو معروف لدى العرب (سوريا) منذ القرن العاشر. وأول الشواهد الآلاتية المقوسة تعود إلى هذا القرن. ويذكر الفارابي «الرباب» ذات القوس باعتبارها تقليداً لقوس المحارب. كذلك فقد عرف الشرق الأوسط الكمان الذي يشبه السنبلة، وهو أحد ضروب «الفيول». واشتهر من الآلات الهوائية (آلات النفخ) آلة «السرناي» Surnay، وتسمى «السرنا» بالتركية، حيث أصبحت معروفة جداً في الشرق.

المؤلفون الهلينيون

عند منتصف القرن التاسع، ترجم الكثير من البحوث النظرية الإغريقية في الموسيقى إلى العربية، بعضها عن السريانية. وتمثل العرب جوانب كثيرة من المؤلفات الإغريقية. وغدا الموسيقيون العرب أساتذة في النظرية اليونانية، حتى أنهم تفوقوا عليها فيما بعد بسبب معرفتهم بالقواعد الفيزيائية للصوت وألحان الآلات. وأصبحت الموسيقى إحدى مواد الدراسة في الجامعات الإسلامية الأولى.

ومن بين المصادر العديدة التي كتبت بين القرنين التاسع والثالث عشر هناك أربعة مصادر هامة وهي أولاً: كتاب الكندي (ت. 874 م) **رسالة في خبر تأليف الألحان**، وهو محفوظ في المتحف البريطاني، ويعتبر أقدم الأبحاث العربية في الموسيقى، وهو مستمد من اليونانية. ثانياً: مؤلف الفارابي (ت. 950 م) **كتاب الموسيقى الكبير**، وهو أعظم مؤلف عن الموسيقى على الإطلاق. ثالثاً: هناك فصل هام عن الموسيقى ودورها في **كتاب الشفاء** لابن سينا (ت. 1037 م). رابعاً: وعلى الرغم من بروز صفي الدين (ت. 1294 م) كرائد للمدرسة الجديدة في التأليف، فقد كانت النظرية ا الهلينية لا تزال مسيطرة حتى ذلك الوقت. وقد وضع صفي الدين **كتاب الأدوار**، وهو من الكتب الهامة في تقسيم الألحان وتوزيعها.

مع ذلك فقد كانت الموسيقى تحافظ على تقدمها رغم ازدياد ضعف الدولة الإسلامية. وبلغ التراجع السياسي للدولة مرحلة الانهيار إثر هجوم المغول واحتلال بغداد 1258 م، ومن بعدها بلاد فارس والرافدين. إلا أن مصر وسوريا حافظتا على دورهما كمركزين للثقافة والفن، نظراً للتأثير التركماني والمملوكي المميز، لكن لم يصل ذلك إلى مستوى شهرة بغداد الفنية. وفي هذه المرحلة، القرن الثالث عشر، أصبحت الموسيقى كنظام لحني وإيقاعي أكثر تطوراً واستقراراً، على النحو الذي وصل إلينا هذه الأيام في العالم العربي. وحدث ذلك تحت مفهومي المقام والإيقاع في الموسيقى.

اسبانيا والموسيقى العربية

قامت اسبانيا الإسلامية بدور هام كواسطة بين الشرق والغرب. وقد أصبحت اسبانيا بلاداً إسلامية

منذ عام 713 م. وأصبحت قرطبة مركز الخلافة عام 755 م، ومركزاً موسيقياً هاماً نافست بغداد. ويعتبر زرياب أهم شخصية موسيقية فيها حيث نسجت حوله الأساطير.

ولقد أطلق العرب في اسبانيا اسم «الطبوع» على العناصر الأربعة المكونة للمزاج. وكانوا يرون أن المزاج البشري ينعكس في الموسيقى من حيث هي عواطف انسانية ethos. أما الأوتار الأربعة للعود فترتبط بهذه العناصر الأربعة، وكذلك بمزاج البدن وتفاعلات النفس والألوان والفصول والبروج وغير ذلك.

ويعتبر زرياب أعظم شخصية إسلامية في الموسيقى الاسبانية. غير أن الموسيقى الاسبانية بعده لم تتقدم أكثر من تقدمها في الشرق. وقد وصلت إلى اسبانيا تأثيرات جديدة عن طريق البربر في شمال افريقيا منذ منتصف القرن الحادي عشر، بعد انحدار الدولة المركزية.

واسبانيا الإسلامية كانت ذات أهمية ليس بسبب موسيقاها الأولى وإنجازاتها الفنية فحسب، بل نظراً لقوة تأثيرها على جزء واسع من أوروبا. وكانت الفلسفة الإسلامية أهم مصدر إشعاع حضاري بين الحقبة البيزنطية والنهضة الأوروبية. ومن هناك استقت أوروبا ثقافتها النهضوية بعد أن كانت تسودها الثقافة «البربرية» الهمجية حتى القرن الثامن.

وفي حين لم تعرف أوروبا غير القليل من النظرية الإغريقية، كان لدى العرب أبحاث كاملة في الثقافة والفنون. ووضع المؤلفون العرب 260 عملاً نظرياً في الموسيقى بين القرن الثامن والخامس عشر. ولم يكن مثل هذا النشاط معروفاً في أوروبا حتى القرن التاسع م، بل لم يكن هناك عمل بيزنطي واحد بين القرنين الرابع والعاشر م. وأكثرية المؤلفات العربية عرفت في اسبانيا، ثم انتقلت إلى أوروبا من هناك عن طريق الترجمة إلى اللغة اللاتينية. وأهم نصين مترجمين هما De Scientiis للفارابي وDe Ortu Scientiarum. وتأثر الإنجليزي روجربيكون بالنص الأول واستلهمه كثيراً. كما أن النظرية العربية في الموسيقى قد ساعدت على السمع acoustics النظري في أوروبا ودفعته قدماً.

وفي الكليات الإسلامية في اسبانيا أصبحت الموسيقى جزءاً هاماً من علوم الرياضيات كما هي في الشرق الإسلامي. وأنشئت في مدينة سلامنكا الإسبانية أقدم كلية للموسيقى وذلك في القرن الثالث عشر م.

ويدين الغرب الأوروبي للعالم الإسلامي بكثير من الآلات، رغم أنه من بين تلك الآلات لم يبق إلى يومنا سوى آلة العود. والكلمة الاسبانية Laud مأخوذة عن العربية «العود». كذلك فإن آلة rebec ـ وهي أهم الآلات الوترية في الغرب قبل الكمان ـ هي تطوير للرباب العربية، حيث استقى منها الغرب فكرة القوس، وبقي هناك حتى القرن الخامس عشر م.

ولعل أهم الإنجازات العربية في الموسيقى هو نظام اللحن والإيقاع عندهم. فقد تطور هذا النظام على أيديهم إلى درجة كبيرة حتى القرن الثالث عشر م. وهو لا يزال حتى أيامنا هذه معروفاً. وقد أصبح يطلق على النمط اللحني اسمه الحالي: المقام. (ويسميه المصريون «نغمة»، والجزائريون «صنعة»). ولأي مقام محدد هناك سلم مميز، وسجل خاص به، كما أن له نوتة أساسية واحدة أو أكثر، إضافة إلى عباراته اللحنية النموذجية. وإذا كان المقام هو ضابط اللحن فيمكن اعتبار الإيقاع rhythm ضابط القياس. وقد عرف العرب في القرن التاسع م. ثمانية منها، وفي القرن 13 كانوا يعرفون اثني عشر مقاماً، سبعة منها بتسميات فارسية.

الموسيقى التركية

قبل أربعين عاماً من سقوط الحكم العربي في اسبانيا فتح الأتراك القسطنطينية. وقد جاء الأتراك من أصل لاسامي، وظهروا أول مرة في القرن السادس م عند حدود الصين. وقد اعتنقوا الإسلام، وأصبحوا يعرفون باسم العثمانيين. وأصل موسيقاهم عربية وفارسية ذات عناصر اغريقية وبيزنطية منقولة إلى اللغة التركية.

ويعتبر نظام مفليفي Mevlevi System و(الدراويش الراقصون)، المتأسس في قونية حوالي 1240 م، أهم سلطة موسيقية عاشت حتى العصور الحديثة. وهذا النظام الموسيقي يستخدم الرقص والعزف في طقوسه وسيلة للتحرر. ومن مؤلفيه المحدثين إيتري (1631-1712 م)، ثم دادا أفندي، اللذين يقال إن مقطوعاتهما مستمدة من موسيقى الفارابي في القرن العاشر م.

وتتألف أوركسترا مفليفي من عدد من الآلات والمغنين، على رأسها الناي والطبل. ويقال إن استعمال الناي جاء تقليداً لواضعه جلال الدين الرومي في مطلع قصيدته العظيمة الـ «مثنوي» Mathnawi، حيث يرتبط صوتها بالحنين إلى منبتها (الذي قطعت القصبة منه)، والحنين الوجدي الصوفي عند الإنسان لذاته. وقد يصل عدد الآلات هنا إلى تسع أو عشر آلات، من بينها الرباب، والصناجات، مع الناي والقانون والطمبور.

وأخيراً يمكن الإشارة إلى موسيقى الحرس الملكي الخاص في تركيا بين 1400-1826 م، المسماة Janizaries. وهي تؤدى بالناي وآلات النقر والطبل الكبير والصناجات والمثلث.

الموسيقى المصرية القديمة

منذ الألف الرابعة ق.م. عرفت مصر حضارة كبيرة. وقد كانت الأقوام الحاميّة التي سكنت حوض النيل تعيش من الزراعة المتطورة. وكان السكان هناك أول من استخدم المصفّقات Clappers لإخافة الحشرات وإبعادها عن المحاصيل. ثم دخلت هذه المصفقات إلى الرقصات الموضوعة لتحقيق خصوبة تلك المحاصيل. وكان ذلك يسهل عمل المشتغلين بالزراعة ويلطفه.

ومنذ مطلع الألف الرابعة حصل لقاء بين المصريين وأهل الرافدين، فتكونت حضارة جديدة. وقد مارس سكان وادي النيل طقوسهم الدينية بالغناء، واعتبروا أن الصوت البشري أفضل الآلات وأقواها للتواصل مع العالم الآخر. ولا زالت كلمات تلك الأغاني محفوظة حتى اليوم، ومنها «أغاني للإله إيسيس Isis. وهي ليست مدونة لأنها كانت شفوية. أما قصائد تلك الطقوس فتوحي بأن الموسيقى كانت تؤدى على شكل ثنائيات بالتناوب بين قسيسات المعابد (اثنتين منهن) وسولو Solo تؤديها قسيسة تمثل الإلهة Isis، مع أنشودة للإله أوزيرس يؤديها رجل.

وقد صاحبت الأغاني آلات موسيقية مثل السستروم Sistrum (الخشخاشة)، التي استمدت اسمها من الإغريقية Seistron بمعنى الشيء المتحرك. وهي ذات إطار خشبي على شكل حرف U. ويسميها المصريون (سهم) لأنها تمثل القوة الإلهية. وأهم الآلات التي عرفت في مصر هي آلة الهارب Harp، وهي مختلفة عن الهارب في بلاد الرافدين، المعروفة هناك قبل ذلك في مكتشفات مدينة أور. ومن آلات النفخ المصرية الفلوت العمودي (عسيبة)، وربما هي أصل آلة Sebe القبطية، والكلارنيت المزدوج الذي يشبه المزمار، ويتكوّن من قصبتين.

وفي عهد الفراعنة اشتهر الهارب والفلوت والمزمار في الموسيقى الدينية. أما في نهاية ذلك العهد، ومجيء الهكسوس، وهي قبائل بدوية من الشرق الأدنى، فقد أدخلت موسيقى جديدة منها الطبل والكستنت. وبعد

عام 1890 ق.م. دخلت قبائل سامية (ربما عبرية) إلى مصر، وجلبت معها آلة اللير Lyre.

هذه الغزوات كلها أدت إلى تدمير الحضارة المصرية «المملكة الوسطى» (1989-1570) قبل الميلاد.

الأثر الشرقي والمملكة الجديدة

بعد عام 1500 ق.م. تحركت جيوش الفراعنة إلى الشرق، واحتكت بحضارة ما بين النهرين. وتأثر الفراعنة بحضارة الشرق، ولم يؤثروا هم فيها. وقد حملت من سوريا إلى مصر مغنيات كثيرات. لذلك أصبح هناك وضع جديد في الموسيقى المدنية. كما أن المغنيات بدأن يظهرن في الموسيقى الدينية في المملكة الجديدة (1570-1090 ق.م.). وظهر الأثر الشرقي من خلال الآلات الآسيوية الداخلة إلى مصر. وتطور الرقص فغدا أسرع وأخف.

ومن الآلات الهامة هناك كان «الأوبو المزدوج» Double Oboe، وهناك أيضاً الترومبيت المستقيم (سنيب) الذي استخدم في حفلات الزواج والمواكب. واستخدم الترومبيت النحاسي والترومبيت الفضي، حيث استخرجا من ضريح توت عنج آمون (1400 ق.م.)، ولهما صوت مميز رائع. كذلك عرف الهارب الزاوي، وأصبح حوالي 1250 ق.م. آلة رائعة. ووصل ارتفاع الهارب المذكور إلى ستة أقدام أو يزيد. ولها عشرة أوتار أو اثنا عشر وتراً. ومع استمرار دخول هذه الآلات إلى المملكة الجديدة، كان النوبيّون في الحقبة التالية في صعود (1090-664 ق.م.)، وشكلوا جزءاً من مصر القديمة.

وفي تلك المرحلة أخذت ثقافات مختلف بلدان الشرق الأدنى تفقد شيئاً من استقلالية سماتها الشخصية، باتجاه العالمية. وهذه المرحلة تتجاوز ألف السنة حتى أيام الإغريقي فالرومان.

في الفترة الإغريقية أدخلت الصناجات إلى مصر. لكن التأثيرات كانت تسير باتجاه مغاير. ويستدل من أعمال الكتاب اليونان أن أكثرية الأعمال المصرية في التأليف الموسيقي قد دخلت النظرية الفيثاغورية Pythagorian في الموسيقى اليونانية. وقد وضع فيثاغورث دراسات عن الموسيقى البابلية. ومن المعتقد أنه قام بعمل مشابه بالنسبة إلى ثقافة المعابد المصرية في القرن السادس ق.م.

وكان الموسيقي العظيم بطليموس (127-151 م) مصرياً، رغم أنه عاش في ثقافة مشتركة ذات مكونات سورية ومصرية وإغريقية. ومن الواضح أن المصريين عرفوا نظام التنويت الموسيقي الثماني الفواصل، والخماسي والرباعي، ولو أن ذلك لا يعني معرفتهم أو استخدامهم الهارموني بمفهوم اليوم.

والمصريون أول من اخترع «الأرغن المائي» hydraulis، مع أنه منسوب إلى الإغريق. ومخترع هذه الآلة المائية يدعى ستيسب الاسكندراني (246-221) قبل الميلاد.

وإذا كانت شذرات الثقافة المصرية قد عبرت عن طريق جزيرة كريت إلى بلاد اليونان فإن بعض ثقافتهم قد آل إلى الكنيسة القبطية (كأجراس المعابد المصرية الصغيرة «الجلاجل» التي استخدمها الأقباط في قداديسهم). والبعض الآخر انحل في الثقافة العربية والإسلامية اللاحقة. وربما نعثر حتى في هذه الأيام على شيء كثير من جوانب ثقافة مصر الموسيقية عند أهل النيل، في الرقصات الشعبية والموسيقى الشعبية. وبخاصة ما يرتبط منها بالاحتفالات.

المصدر

(1) The Pelican History of Music - 1.

وبصفة خاصة عن بحث بيتر كروسلي، بعنوان «العالم العربي» ص 118.

(2) يمكن العودة إلى مجلة «التراث الشعبي» العراقية ـ العدد السادس عام 1979، من أجل بعض التسميات، في مراجعة قاموس الدكتور حسين علي محفوظ في الموسيقى المصرية. ص 237. وهي مقالة هامة، عرض طلال سالم الحديثي.